وحينئذ صادق هذا الشيخ البائس وتعلق به، ورعاه حين مرض، ولم يفعل هذا إكراماً لعشيقته، بل فعله رثاء له وشفقة خالصة عليه، لما وجده منبوذاً من ابنتيه القاسيتين. وقد بذل «راستنياك» جهداً كبيراً من أجل استدرار عطف السيدتين على أبيهما، ولكنه أخفق، ومات الشيخ المسكين من جراء المرض وهو يحترق شوقاً إلى رؤية ابنتيه.

إن «راستنياك» يخرج من تجربته هذه إنساناً آخر، إنساناً مفتوح العينين على حقيقة المجتمع الذي نخر السوس قلبه. إنه كان يرفض الإصغاء إلى «فوتران» الذي طالما نصحه بأن ينضو عنه ثوب الطيبة الريفية ويتسلح بأسلحة العصر.

«هل تعلم كيف يستطيع الشاب أن يلمع وأن يتقدم في عصرنا هذا؟ يستطيع ذلك إما بالعبقرية، وإما بالدهاء. ينحني الناس أمام العبقرية وهم يكرهونها، ويحاولون سلبها، لأنها تأخذ ولا تشارك، لكنهم يسجدون لها إن لم يستطيعوا أن يغمروها بالوحل.. إن الثروة الضخمة تتطلب جرأة وإقداماً، وإن العامة تقول عن الذين ينجحون بسرعة إنهم لصوص، هذه هي الحياة، والمهم فيها أن تبدو نظيفاً إن لم تكنه..»[٤٠]. هذا ما كان يسمعه «راستنياك» من «فوتران».

إن «راستنياك» كان يرفض تعاليم «فوتران» هذه. وقد أبى أن يغرر بالفتاة اليتيمة الآنسة «تايفر» ويوافق على قتل أخيها - في مكيدة يتولى «فوتران» تدبيرها - كي يضطر أبوها إلى رعايتها، ويتزوجها حينئذ «راستنياك» فيصبح غنياً.. أقول: إن ضمير «راستنياك» كان يعلو على مثل هذه الخساسة، وهذا الدهاء، ولكنه الآن يتأمل نصائح «فوتران» السابقة ويريد أن يتبناها في الحياة، وأنه سوف يتخلى عن ضميره، لا حباً في الغنى أو الترف أو دخول المجتمع البورجوازي «الراقي» من أوسع أبوابه، بل تحدياً لهذه الهيئة الاجتماعية الضارية.. ولهذا فإننا نجد «راستنياك» يقبل أن يتناول طعام العشاء عند السيدة «دي نوسنجن». وفي ذهابه إلى تلك العشيقة العاقة آخر عهده بالحياة الشريفة»[٤١] على حد تعبير الدكتور محمد مندور.